الهجاء بالمهنة في الشعر العباسي
(دراسة في شعر السري الرفاء)

أ.م.عامر نايف الهيتي

1. التمهيد
فن الهجاء بالمهنة في القرن الرابع الهجري

الهجاء من الاغراض الشعرية التي اصابها التجديد عبر عصور الادب وابرز وجوه التجديد ولادة الهجاء الاجتماعي وتوسع دائرته، فلم يعد الهجاء مقتصراً على الجوانب القبلية والاخلاقية فحسب وانما اتجه شعراؤه اتجاهاً شعبياً تناولوا في احد جوانبه العاملين في قطاعات اجتماعية مختلفة وبخاصة في القرنين الثالث والرابع [1] الهجريين مثل اصحاب المهن الذين رماهم الشعراء بسهام هجائهم، فهجوا كل صاحب مهنة بما يتناسب ومهنته وحرفته بروح ساخرة وهزلية [2]، يمتزج فيه الهجاء بالسخرية باسلوب كاريكاتوري تمثيلي. ((وهو بهذا يسجل تحولاً في فن الهجاء، فبعد ان كان يقصد به ايلام المهجو بأن تسلب منه دواعي الفخر اصبح في صورته الاخيرة فناً هزلياً فيه متعة وتسلية ومرح)) [3]. والشعراء يندفعون الى هجاء اصحاب المهن بعوامل كثيرة ابرزها واقواها المنافسة والحسد ومركب النقص لدى الانسان. فالحياة العامة تحتم الاحتكاك بين الناس، والشعراء كغيرهم تدفعهم هذه الحياة بما فيها من روح منافسة واضطراب الى خصومات ومهاترات وحروب كلامية قد تطول وقد تقصر، وهذه كلها تثير فيهم عواطف البغض والسخط فيلوذون بالسنتهم الذربة يرمون بها منافسيهم بكل مذمة، وقد يلتفت بعض الشعراء الى مهنة المهجو فيتخذون منها وسيلة واداة يهجون بها منافسيهم، فيذكر الشاعر كل ما يتصل بها وبخاصة اذا كانت المهنة مما يحتقرها المجتمع، فيحط من قدر صاحبها بروح تهكمية ساخرة وهو الطابع الذي ساد القرن الرابع الهجري اذ (لم تصل لغة الهجاء في اي زمن من

الازمان الى ما وصلت اليه في القرن الرابع... فقد غدت الروح الظريفة او المبتذلة الفاحشة ميزة هجاء القرن ولم يعد الناس يتناولون شعر الهجاء الا اذا تهاوت وتردت معانيه)[4] ومن هذا الهجاء الساخر هو الذي ظاهره جد وفي باطنه هزل، وقد سلك فيه الشعراء المذهب الذي عرف في علم البديع بحسن التعليل، فكان الشاعر من هؤلاء اذا اراد هجاء احد تفطن الى مهنة مهجوه او ابتدع له مهنة دنيئة فحللها وعلل اسبابها وطرق عمله فيها تعليلاً هو في ظاهره دفاع عنها وثناء عليها وهو في حقيقته امعان في تقبيحها والعبث بصاحبها وذلك ادعى للهزل واجلب للهزوء بالمهجو والسخرية منه لان ذلك يأتي على غير انتظار من سامع الشعر او قارئه فمن ذلك سخرية ابي نؤاس من اسماعيل بن ابي مسهل الذي يبدو انه كان خبازاً فقد تهكم فيه من خلال وصف خبزه فقال[5]:

خبز اسماعيل كالوشي اذا ما انشق يرفى
عجباً من اثر الصـــــن ـــعة فيه كيف يخفى
ان رفاءك هـــــــذا احذف الامة كفـــا

ان هذا الهجاء نابع من المنافسة في حلبة الممدوحين ودافعه الاول الحسد فحين شعر السري الرفاء بان الشاعر النامي [6] قد بزه في حلبة سيف الدولة الحمداني أراد الانتقاص منه ولم يجد افضل من مهنته (الجزاره) وسيلة لهجائه فقال[7]:

ارى الجزار هجيني وولى وكاشفي واسرع في انكشافي
ورقع شعره بعيون شعري فشاب الشهد بالسم الزعـــاف
لقد شفيت بمديتك الاضاحي كما شقيت بغارتك القوافـــــــي

ان هذا الاسلوب في فن الهجاء بالمهنة كان سمة لازمت السري الرفاء فان لم يجد مهنة لمهجوه اختلق له مهنة وضيعة سعياً وراء التهكم والسخرية من مهجويه.

وتبدو على هذا الهجاء الساخر سمات تميز عن الهجاء في العصر السابق ومنها ان هذا الغرض استقل بمقطوعات او قصائد قصيرة ولم يعد يشارك غيره من موضوعات القصيدة العربية التقليدية حيث يجتمع اليه فيها النسيب الذي لابد منه في مقدمات القصائد ثم الفخر احياناً والمدح احياناً اخرى.

والامر الاخر هو ان الهجاء اصبح فناً شعبياً عامياً في معانيه وفي اسلوبه فلم يعد يحفل بالمقاييس الاجتماعية والخلقية المأثورة عن المجتمع العربي. وامر اخر استجد في الهجاء في هذا العصر هو افادة الشعراء من المعارف الجديدة وتأثره بالحياة العقلية فاستخدم المنطق والاحتجاج [8]، وقد مال هذا الهجاء الى السهولة في الاسلوب والبساطة وابتعد عن الجزالة وذلك سعياً وراء الانتشار بين اوساط المجتمع للانتقاص من المهجو. ان السري من بين شعراء الهجاء اكثر من هجاء اقرانه وغيرهم والانتفاض منهم، ويبرز لديه استخدام المهنة وسيلة هجاء وبخاصة في هجائه منافسيه في حلبة الامراء كالشاعر النامي وعلي بن العصب الملحي [9] والخالديين[10] والشمشاطي[11] والتلعفري[12] من اصحاب المهن حيث امعن في التهكم بهم من خلال مهنهم او مانسب اليهم من مهن وضيعة.

1. السري والنامي

يعد الشاعر ابو العباس النامي في مقدمة الشعراء الذين تعرض لهم السري بالهجاء والعبث بهم من خلال مهنهم فقد ذكرت مصادر الادب ان الشاعر النامي كان جزاراً بمدينة حلب ورث هذا العمل عن ابيه [13] يستغل السري عمله للانتقاص منه والحط من قدره ورميه بالتطفل على الشعر ومنافسته له واكثر من اتهامه له بسرقة شعره وتحريفه، ولعل هجائه للنامي نابع من الحسد والمنافسة في حلبة سيف الدولة الحمداني فقد كان النامي مقرباً لدى سيف الدولة فهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد المتنبي وهذا يغيض السري وشعر بانه قد ابتزه مكانته ويبدو ان السبب الرئيس وراء هجائه

له كان انحياز النامي الى غريميه للدودين الخالديين حيث فضلها عليه في نظم الشعر مما اثار حفظته فقال[14]:

ارى الجزار هيجين وولى وكاشفني واسرع في انكشافي
ورقع شعره بعيون شعري فشاب الشهد بالسم الزعـــاف
لقد شقيت بمديتك الاضاحي كما شقيت بغارتك القوافـــــي

فالشاعر استخدم مفردات كثيرة استمدها من مهنة المهجو كالجزار والمدية وسقيت وهي من مهنة المهجو الجزارة وكذلك رفع من مهنة الخياطة والرفو التي كان يمارسها السري ثم اتهمه بالجهل بالشعر والايغال بالسرقة فقال[15]:

فتكت بها مثقفة النواحي على فكر اشد من الثقاف
كانك خاطف منها ثماراً سبقت اليه ابان القطـــاف
وشر الشعر ما أداه فكر تعثر بين كد واعتســـــاف

ويعود السري مرة اخرى الى غريمه النامي ويتخذ من مهنته وسيلة لهجائه والسخرية منه ويستخدم مفردات الجزارة ادوات لرسم صوره كالمدى والجزار وجزور وناب ومخلب وغيرها ثم يتهمه باستسهال سرقة الشعر على العمل في الجزارة باسلوب ساخر ومتهكم فيقول[16]:

اجزار باب الشام كيف وجدتني وأنت جزور بين نابي ومخلبي
اراك انتهبت الشعر ثم خبأته عن الناس فعل الخائف المترقب
تباعدت عن باقورة الشام بالمدي اليه فلم تحـــــــرج ولم تتحوب

3. السري وابن صدقة

ويلتفت السري الرفاء الى الشاعر واديب اخر ليتخذ من مهنته وسيلة لهجائه وهو الشاعر ابن صدقه النحوى [17] فقد اتبع السري في هجائه اطرف انواع الهجاء الساخر في تحقيره دون ان يظهر ذلك صراحة وانما يشير اليه من خلال موضوع آخر حتى انك تظن انك تقرأ في غرض آخر غير الهجاء وهذا النوع من الهجاء هو امتداد الى الهجاء الذي استجد في القرن الثالث الهجري ((وقد سلك فيه الشعراء المذهب الذي عرف في علم البديع يعد ذلك بحسن التعليل فكان الشاعر من هؤلاء اذا اراد هجاء احد تفطن الى صفة من صفاته القبيحة فحللها وعلل اسبابها تعليلاً هو في ظاهره دفاع عنها وثناء عليها وهو في حقيقته امعان في تغييبها. ومن العبث بصاحبها)) [18] وذلك ادعى الى الهزل واجلب للهزء بالمهجو والسخرية منه لان ذلك يأتي على غير انتظار من سامع الشعر، فالشاعر كان يختلق لخصومه قصصاً مليئة بألفاظ متردية [19] بقصد احتقاره بدافع الحسد والمنافسة، والذي يعنينا ان هؤلاء الشعراء الذين طرقوا هذا اللون من الهجاء ومنهم السري الرفاء ((كانوا يتخذون من الحزازات التي بينهم وسيلة من وسائل السخف والضحك والهزل)) [20] فأوجدوا هذه النغمة الهزلية الطريقة فجعلوا من منافسيهم اضحوكة وصورة كاريكاتورية يتندر بها الناس، ومن لاذع سخريته التي جاءت من خلال مهنة المهجو الحياكة التي نسبها السري له ما قاله فيه بعد موته على سبيل الرثاء واتخذها موضوعاً لتحفيزه والاستهزاء به، فتتبع عمل الحائك ولوازم الحياكة وأدواتها، فوصف حركة يديه ورجليه في الحياكة باسلوب تمثيلي ساخر يبعث على الضحك وان كان في حقيقته رثاء فقال[21]:

أبا الحسن احترمتك المنون وكانت بمثلك لا تحفل
وكيف تخطت اليك الـــورى وانت حضيضهم الاسفل
تذكرت اذ انت ستـــــر لـــنا واذ نحن حصنك والمعقل
واذ لك من قصب اسهـــــــم طوال ومن خشب منصل

واذ انت في القر لا تصطلـــــي نشاطاً وفي الحر لا تفشل
تبـــاكر مطـــــــــرداً متنـــــه نقياً كما اطـــــــرد الجدول
ومن فوق راســـك غريـــــدة صدوح كما صدح البلبـــــل
ويمناك تبعث فـــــي سرعـــــه رسولاً بيسراك يستقبـــــــل
ورجلاك تصعـــــــد احداهمـــــا فواقـــــــا واحداهمـــــا تنزل
فانك مـــــــن معشر فضلهـــــــم قديـــــــم وايمانهـــــــم اول
لهم بالصناعة لا بالصنيع ستـــــر (م) علـــــــى غيـــــرهم مسبل

فلم يترك الشاعر شيئاً يتصل بمهنة ابن صدقه (الحياكة) الا وتندر بها بروح هزلية تثير الضحك بقصد الحط منه متتعاً حركة يديه ورجليه في الصعود والنزول متهمته بانه من اصحاب الصناعة وليس قول الشعر.

ويعود اليه في قصيدة اخرى بنفس الموضوع والفكرة فيهجوه من خلال مهنته بصور ساخرة ويلتفت الى لوازم الحياكة واسلوب وعمل الحائك في رسم صورة الهزلية مستهلاً قصيدته بمطلع رثائي حيث يقول[22]:

ذكرناك فانهلت مدا معنا تترى مخبرة عن كل ذي كبد مـــــرى
عهدتك مخصوصاً من البيت كله بمنزلة في الصدر انت بها احرى

ثم ينتقل كالقصيدة السابقة الى وصف حركة يديه ورجليه في الحياكة باسلوب يثير الضحك فيقول[23]:

تظل بها رجلاك في قعر وهدة اذا ما علت احداهما هوت الاخرى
وفوقك صفراوان ان شئت غنيا كذاكرتى فرخين شفهما الذكـــــرى
وكم ارسلت يمين يديك رسولاً فما لبثته حين صافحتها اليســـرى
عجبت له طرفاً فايجر عنانـــــه ولا يشتكي الابن ما بعد المســـرى

يشق نقي المتن جعدا كأنـــه غدير تمشي الريح من فوقه حسرى

فقد صور عمله باسلوب تمثيلي ساخر لينتهي الى نوع من الرثاء الممزوج بالهجاء حيث يقول[24]:

فيا هالكاً اغرى الانام بهلكه وعز على تلك الانامل ان تعرى
اذا صغرت يوماً رزية صاحب بصحابه كانت رزيتك الكبـــرى

4. السري وابن اليمبج

ويلتفت السري الرفاء الى الشاعر والاديب فارس بن اليمبج يسخر منه من خلال مهنته (الرقص) وسخريته لا تختلف عن سخريته من ابي الحسن بن صدقه من حيث الفكرة والموضوع، فقد هجاهما من خلال مهنتيهما، وبسبب كراهيته لابن اليمبج راح يمعن في هجائه له مستغلاً معرفته بمهنته التي نسبها اليه، فقد قيل انه كان يعزف ويرقص في بغداد في حداثته ثم تأدب بعد ذلك [25] واصبح من جماعة المعتزلة فقال[26]:

كفرت ولم اشكر نصيحة فارس وكم من نصيح مثله حرم الشكرا
أرانـى طريق الاعتزال ولم يرد سوى ان اسب الله والعالم الطهرا
سأستأن القران فيما دعوتنـــــي اليه والا اعصي لمنزله امـــــرا

وقد عد عمله هذا عاراً عليه فهجاه باسلوب لاذع، ولكن الشاعر في هجائه تراه كمن يحزن او يتأسف على ترك مهجوه مهنته التي يعدها الناس مهنة وضيعة

تجلب لصاحبها المهانة، فهاهو يصور لنا ما كان يقوم به ابن اليمبج في الملاهي من اعمال ناقصة تعد عاراً عليه فيقول[27]:

أأبناء الطريق دعوا طريقاً سبقت السابقين جميعـــا
فلست مجاوراً ولا جــواداً ولست مقارعاً الا قريعـــا
ازفـــــان المحزم ان زفناً بحر الشعر احرى ان يشيعا
تركت الدف تنقره اكتســاباً وملت علي تنقرني ولوعاً
اذا الشيخ الخليع هفا اغتراراً تيمم بالاذى الحمل الخليعا
سيذهل عن فنون الرقص هما اذا رقصت منه حشا مروعا
ويفصح نايه سجمات نابـــي اذا استودعن سرفتى اذيعـا

فقد سخر منه ومن عمله واتهمه بانه ترك مهنته وهي الضرب على الطبل وحال اليه ينتقده ويذمه، مستخدماً اسلوب عمله ولوازم مهنته ادوات في تجربته الشعرية، فالشاعر في هجائه لم يتعرض لغير مهجوه فلم يذكر اباه ولا امه او قبيلته بل اتجه الى مهنته ولوازمها وشخصه.

ثم ينتقل الشاعر الى الات الرقص والطرب واماكنه وما فيها من لوازم يستخدمها ادوات في رسم صوره الهزلية الساخرة فيتندر من ابن اليمبج فاذا بآلات الرقص والحانات تخلع ثياب الكبر وترتدي ثياب الخشوع اقتداء بصاحبها وحزناً عليه، واذا به بتوبته يترك المعازف في ضياع وحزن والصنوج في خطب عظيم، والشاعر (ينهج سبيل الرمز والايماء فيمدح الشخص المهجو بالصفات التي هي مدعاة للذم ومجلبة للاستهزاء والسخرية) [28] فيقول[29]:

لقد خلعت بتوبتك الملاهي ثياب الكبر واكتست الخشوعا
تركت بها المعازف ضائعات وعز على المعازف ان تضيعا
فقد شحثت لحاك لها ولاقت صنوجك بعدها خطباً فظيعـــاً

ويصور حركاته في الرقص وغناءه الذي يبكي الاصحاب وبهجره افقرت الملاهي فيقول[30]:

وكنت اذا الرفاق رأتك تشدو بألحان القريض بكت نجيعاً
وعفت العار الاغر انس تخر له اذا ادلى صريعاً
يزورك والدجا ستر عليـــه فيرقع منك مأبوناً رقيعاً
افارس هل تكون غدا شفيعي اذا انا فيك عاديت الشفيعا
دعوت الى الضلال دعاء غاو فلم يكن السميع له سميعا
أأرغب عن وداد ابـــي تراب وقد شجن الترائب والضلوعا

ويوغل في سخريته منه ومن عمله فيتساءل كيف يمكن للمؤنث ان يترك الطرب ويتنسك فيقول[31]:

وكيف نسكت بعد مقال قوم اذا نسك المخنث مات جوعا
وكنت اذا رأتك الرقاف تشدو بالحان القريض بكت بخيعاء
هجرت الهجر الا نظم شعر بهرت بسحره السحر البديعا

لقد انتزع السري الرفاء صوره الهجائية من مهنة المهجو وادواتها باسلوب تمثيلي هزلي للحط منه فالسري لم يعدد صفات مهجوه السلبية كما هو معروف في الهجاء من بخل وجبن ولؤم ولم يتعرض الى اهله او عشيرته ومنزلتها وانما عرض ناحية من نواحي مجونه وتهتكه وانحرافه الاخلاقي في نظر المجتمع آنذاك لممتهن الرقص والغناء.

وتكون مهنة ابن اليمبج هذه مرة اخرى وسيلة هجاء يتخذها السري الرقاء فيعود ويهجوه بقصيدة اخرى شبيهة بالاولى من حيث الاسلوب فيخرج من التأسف والحزن الى الهجاء غير المباشر، فترك ابن اليمبج الرقص والغناء جعله يحزن فيتألم ولكن ليس عليه بل يتحسر على فوات لذاته وعفائها فكأنه يرثيها ويتوجع لها فيقول[32]:

سألت الله مما كان عفواً وعذت بتوبة تركتك نضوا
محوت صحائف اللذات لما محوت بها سطور الزمن محوا

ثم يلتفت الى آلات الرقص والغناء والملاهي والحانات يستخدمها ادوات تعينه في رسم صوره الساخرة فاذا بالكؤوس والملاهي والناي والصنج والحانات حزينة ومهمومة شاكية بعد نسك صاحبها ابن اليمبج فيبرز هذه الصور من حياته السابقة باسلوب ساخر تمثيلي فيقول[33]:

فأضمر نايك الحنان هماً واعلى صنجك الصياح شكوى
وكم للقصف من طلل مجبل تايد منك منزله فأقـــــوى
احقاً عاد طعم العيش مرا وكان بزفنك المموق حــلوا
وجف قضيبه المياس رقصا وطار هزاره الغريد شـــدوا

ثم يغرب السري في هجائه لابن اليمبج فيصف حياته السابقة التي يستقبحها المجتمع وبصور ساخرة متهكمة وظريفة فيذكر حركات جسمه التمثيلية والمثيرة اثناء الرقص والغناء والتي يخال القاريء انها في المديح ولكنه يكتشف انه المديح انما يشبه الذم فيقول[34]:

أفارس أنت أحسن من تثنى على صنج وأملح من تلوى
اصيب العيش منك بخير حاد يحث ركائب الصهباء حدوا
اذا اختلجت مناكبه لرقص نزت طير القلوب اليه نزوا

وبعد ان يشبع نفسه سخرية وتهكماً من المهجو في هذا الموضوع يلتفت الى موضوع آخر الا وهو عدوله عن الرقص الى التأدب، فأمعن في سخريته منه فقال[35]:

أعاد حكاية الشيخين جدا وكان حكاهما لعباً ولهوا
فأصبح زفنه لغة وشعرا وأمسى عزفه جدلاً ونحوا
قعدت وكم نهضت الى التصابي بنقر الدف توسع فيه خطوا
فأظهرت الزمانة في زمان حرزت به من اللذات عضوا
تجف به رواة عنه علمـــاً زلالا ان سقانا منـــه ازرى
فمقتبس من المصباح نورا ومفترف من التيار صفوا
فلا يبعد زمان منك عادت مواهبه على الخشبان بلوى
لبال بالمعازف منك تنصى وايام بحث الراح تطـــوى

فالسري يسخر من مهجوه حين ترك مهنته الرقص وتأدب وراح يقول الشعر وينظر في قضايا اللغة والكلام.

وهو لا يظهر هجاءه وانما يشير اليه بخيط من السخرية فكانه متأسف حزين ومتألم على مهجوه فيضربه بسهام هزئه وتندره فيبدع في التمثيل والتصوير الكاريكاتوري المتنزع من مهنة ابن اليمبج الرقص وادواتها واماكنها وهذا الهجاء الساخر الظريف يشبه في بعض جوانبه شعر ابن الرومي في هجائه الساخر [36] غير ان ابن الرومي يتخذ من اشكال مهجويه الجسد به وعيوبهم سبباً للنقيصة والتهكم والاستهزاء ليضحك عليهم[37].

ومرة اخرى تكون مهنة ابن اليمبج وسيلة للسخرية منه فيلتفت السري الرفاء الى ادواتها وكذلك الى اماكن الرقص والملاهي التي يعمل فيها فاذا بها قد تسلبت بعد ان كانت غض الملابس لان ابن اليمبج تركها واذا بالكؤوس عواطل بعد ان كانت مثل حلى العرائس فيقول[38]:

عفاء على اللذات من بعد فاس فقد عطلت منه حسان المجالس
جلا حر وجه قد اضاء بتوبة كأن سناها فيه شعلة قابس
تكسر اصناف المعازف من بعدها كما عقر الاخراس بعد الفوارس
مصاحب الزفن التلبد واصبحت رسوم الملاهي كالرسوم الدوارس
نعيم رمته الحادثات بفادح فزال وسعد اردفته بناحس
ومختلس من حومة اللهو لم تنل مقاتله ايدي الحمام المخالس

ان هذا في ظاهره رثاء ولكن وراءه هدف زخر هو هجاء ابن اليمبج غير المباشر اذ توجه الشاعر به الى مهنه المهجو حين تركها فاللذات من بعده معطلة والمعازف مكسرة وقد اجاد الشاعر حين شبه ذلك بعقر الفرس عند مصرع الفارس. فيتألم ويتأسف على ايام ابن اليمبج التي رمتها الحادثات بالنحس حتى عادت الكؤوس عواطل واصبحت حانات بغداد موحشة ذابلة الرياحين يابسة ويتأسف عليه ويدعو له بفداء النفوس فيقول[39]:

فدتك نفيسات النفوس من الردى ومثلك يفدى بالنفوس النفائس
نسكت فلا ليل الضيوف يحقمر علينا ولا يوم الصبوح يتسامر
كأنك لم تحد الكؤوس وقد حدت طليعة ضوء الصبح غبر الحنادس
ولم تؤنس الشرب الكرام بمخطف من الزنج حنان الغدو مؤانس

ثم يعود مرة اخرى ويبكي على اثار هذه المهنة لابن اليمبج بكاء الشعراء على دارس الطلل والديار فيقول[40]:

هوى درست اعلامه فكأنمـــــــا ترامت به ايدي الرياح الدواحس
وربع شكا من فرقة اللهو ما شكت ربوع التصابي من فراق الاونس
فليس هزار الشدو فيه بناطـــق وليس قضيب الرقص فيه بمائس

ويتساءل هل يترك اللذات بعد فارس ويدعو لها بالتبور بعد توبة مهجوه فقال[41]:

أأرغب في اللذات من بعد فارس وقد رميت من نسكه بالدهارس
فتبا لها اذ تاب من نقر دفـــــه ولا سقيت صوب الغيوب الرواجس
تسلبت روض الياسرية بعـــــده وكانت جديد الحلى غض الملابس
فما للتقي عادي به شهد الصبـــا وكاد المنى كيد العدد المنافـــس
وما بال اعنقا الكؤوس عواطـــلا وكانت مثل حلـــــى العـــرائس
وما بال حانات العراق تنكـــرت فاصبح منها موحشا كل انـــــس
ارى وردها ما بين مود وذابـــل وريحانها ما بين ذاو ويابـــــس

5. السري والملحي

ويجد السري الرفاء في مهنة منافسه علي بن العصب الملحي وسيلة لهجائه والسخرية منه، ويبدو ان الملحي الذي كان يبيع الملح كما يقول السري في شعره عمل ايضاً حائكاً فوجد في مهنته هذه اداة النيل منه بعد ان نافسه في قول الشعر فقال[42]:

جنح الملحي للسلم ووافي يستقيل
بعد ان جلله خطب مـــــــــــن الشعر جليل
كنت للشعر اقلـــــه انه شيخ جهول
قال لي: ليس الى ما راحه الدهر سبيل

لست من شكلك والنا س ضروب وشكول
انت للحاكة حتى يصدر الورد خليل
فاقطع الرسل فقد از رى بنا منك الرسول

وبيع الملح مهنة ابن العصب ولذلك لقب بالملحي، فالسري يسخر منه من خلال مهنته ويتخذ منها موضوعاً للنيل منه فيقول حين مال الى الخالدين ويتعصب اليهما[43]:

شققت قذال الخالدي بمنطق يشق من الاعداء كل قذال
وناضلني الملحي عنه فأصبحت جوارحه مجروحة بنبالـــي
ومالعلي بائع الملح بالنـــــوى اذا ام الخـــــــالدي ومالي

فها هو السري يصف شعره بالنوى الذي لاتجبى منه فائدة، اذ كان الملحي يبيع الملح ويقبض ثمنه نوى فيقول موجهاً سهام هجائه اليه بعد ان تحول عنه الى الخالديين اذ كان صديقاً له[44]:

طوى وده الملحي عنى فانطوى وقد كان لي خلاً فاعرض والتوى
دعاني فغداني بانشاد شعـــــره فلولا انصرافي عنه بت على الطوى
وقال أتاك الحلي قلت ممازحاً أتاك النوى يا بائع الملح بالنـــوى

ويعود اليه مرة اخرى يسخر منه من خلال مهنته بيع الملح، فحين يحكم الملحي السري في شعره ويعرضه عليه لايجد افضل من النوى الذي كان يبيع به الملح يصفه به [45] واذا لم يجد مهنة لابن العصب الملحي مثل بيع الملح تحط منه ينسب اليه مهنة معيبه من المهن التي يرفضها المجتمع ويحط من قدر صاحبها فيتخذ

منها وسيلة للانتقاص منه، فالملحي كما يدعي السري كان يعمل في الملاهي فيشنع عليه ويشهر به بين الناس، فالملحي يحتقره الناس ولايقيمون له وزناً بسبب عمله هذا فيقول[46]:

نصبت لفتيان البطالة قبـــــــة ليدخلها الفتيان كهلاً وامردا
وكان طريق القصف وعراً عليهم فسهلته حتى رأوه معبـــدا

ان هذه المهنة المحتقرة في المجتمع يجد فيها وسيلة ناجحة لهجاء غريمه الملحي فيعبث به ويقول[47]:

سل الملحي كيف رأى عقابي وكيف وقد اناب رأى ثوابي
وشيخ طاب اخلاقا فأضحـــى احب الى الى الشباب الشياب
له قفص اذا استخفيت فيـــه خفيت فلم تنلك يد الطـــلاب
طرقناه وقنديـــــل الثـــريا يحط وفارس الظلماء كابـــي
فرحب واستمال وقال حطـــت رحالكم بأفنية رحـــــــاب

وهو لا يخاطبه باسمه بل يلقبه بالملحي متهكماً منه[48]:

اما ان للملحي ان ينشر الودا ويطوي الجفاء والهجر والصدا

ويمعن السري الرفاء من سخريته من الملحي بتصوير اماكن الطرب واللذة التي كان كما يدعي يعدها لطلاب اللهو والمتعة فيقول[49]:

فاغد سرا بنا الى قفص الملـــــ ـــحى فالعيش فيه غض نضير

تتوارى من الحوادث والدهـــــــ ـر خبير بمن توارى بصيـــر
مجلس في فناء دجلة يرتـــــا ح اليه الخليع والمستـــــــور
ليس فيه الاخمـــــار وخمـــر ومحاث من سكرة ونشـــــــور
هو شيخ رأى القيادة عيشاً كل عيش سواه اقك وزور
ترك الملح والتجارة اليـــه ان يوم السرور يوم قصير

ويعبث به من خلال تصوير داره وما يدور فيها فيقول[50]:

لا تصخبن الى مقال سفيه غاد عليك بزخرف التمويه
وبث فيك القول كي تحظى به فغذا يحرف لفظه ويشبـه
ما قلت: فوادا يرب معيشة لكن مساعد جله واخيـــه

ومرة اخرى تكون هذه المهنة المعيبة اداته في الطعن به والسخرية منه باسلوب هجائي لا نكاد نشعر به لان الظاهر منه انه قيل في الاخوانيات غير ان القارئ يكتشف انه هجاء ساخر وخفي يتستر بثوب الاخوانيات ويلتفت الى عمل الملحي في حانته التي تطل على نهر دجلة ببغداد ويستمد منها ادوات للسخرية منه فيقول[51]:

شيخ لنا من شيوخ بغداد اغذ في القصف اغـــذاذ
رق طباعاً ومنطقاً فغـــدا وراح في المستشف كاللاذ
قواد اخوانه اذا ظمئـــوا سقاهم الراح سقي نبـــاد
له على الشط غرفة جمعت كل خليع نشأ ببغـــــداد
وكده من صباح قطر بـل دشوذرا من ملاح كلـــواذ
يقول للزائر الملح بـــــه اوصل هذا ألذ ام هـــذي؟

قل لعلي سقتـــك غاديـــــة مسغة الـــــودق ذات ارذاذ
فخير ما فيه انه رجـــــــل يخد منى الدهر وهو استاذي

6. السري الخالديين

وتكون المهنة وسيلته في هجاء غريميه اللدودين الشاعرين الخالديين ينال منهما من خلالها، فقد كانت بينهم عداوة طويلة سببها المنافسة والحسد، فوجد السري الرفاء مهنة الفلاحة او العمل في الارض والزراعة افضل وسيلة ينال منهما، فهذه المهنة كانت تقتصر على الانباط، وكانت الناس تنظر اليها على انها مهنة تحط من قدر صاحبها، وانها تقتصر على الناس العامة دون الخاصة فينسبهما الى الفلاحة ويذكرهما بوضاعة وذلة ابيهما وحقارته بمهنته هذه فيقول ويتهمهما بسرقة شعره[52]:

فغدت نبيط الخالدية تدعي شعري وترفل في حبير شبابي
أسعيد انك لو بصرت بهاشم في القمر غير مبجل الاصحاب
محض المذلة راكبا عكازه رث المعيشة شاحب الجلبـــاب
لحفلت انك لا تطيل عمامة مصقولة العذبات والاهـــــداب

ففي هذه الابيات سخرية من انتماء الخالديين الى مهنة الانباط وهي الفلاحة مستغلاً حال الفلاح ومظهره.

وها هو في حضرة سيف الدولة الحمداني يتعرض الى الخالدي الاكبر وينسب اليه مهنة بيع دواء الفأر بالاسواق، وكان سيف الدولة قد طلب منه ذلك فقال[53]:

يكفيك ان قنافا راعه غضبي قبل الهجاء فلاقي الحين من فرق
لو ان قمل قنافس ثلة رقعت ليلا من النفع يمحو غرة الفلـــق
يا قاتل الفأر حتى ما يحسبهم أهل المنازل في صبح ولا غسق

قد كان لي وطر في الشعر اخلقه ما جال في اذني من شعرك الخلق
ليس القريض دواء الفأر تحمله بين الشوارع والاسواق في طبق

7. السري والشمشاطي

ويلتفت الى شاعر آخر كانت له معه صحبة ولكنه تحول عنه فهجاه هجاءاً مراً وهو الشمشاطي، وقد نسب اليه مهنة معيبة تجعله سبباً للسخرية وهي العمل في الملاهي، ويبدو ان هذه المهنة كان ينسبها الى اعدائه للحط من قدرهم فقال[54]:

آباؤك الاشراف الا انهـــــم اشراف موش وشاطح وخلاط
نسب يبين عن سقوطك نشره كالثوب تنشره عن الاسفـــــاط

ولولا الحشمة التي يستدعيها البحث لذكرت الابيات التي تشير الى مهنته المعيبة والتي استغلها السري للنيل من غريمه الشمشاطي والحط من قدره، والسخرية منه من خلال عرض كل ما يتعلق بها من ادوات واماكن.

8. السري والتلعفري

وهذا التعلفري المؤدب الذي كان يعطي الدروس في الادب واللغة ويرميه حين نافسه يتجاوز مهنته اعطاء الدروس في اللغة والادب الى قول الشعر ومنافسته فيه، وينصحه بالتزام مهنته والابتعاد عن قول الشعر فقريضه لا يستحق الثناء فيقول[55]:

ينافسني في الشعر كاســـــد حسود كبا عن غايتي ومعانـــــد
وكل غبي لو يباشر بـــــرده لظى النار امنحى حرها وهو بارد
اذا سئلوا عما يلوح تبلـــدوا كانهم عند السؤال جلامـــــــــد
يحوث ذكاء الطفل مادام عندهم وكيف صلاح الفرع والاصل فاسد

افيقوا فلن يعطي القريض معلم وهل يتولى الاغبيـــــاء عطـــارد
فلا تمنحوا منه الكرام قلائداً فليس من الحصباء تهدى القلائد

9. السري والمغنية

وقد طالت سهام هجاء السري الرفاء اصحاب مهنة الغناءوالغنيات، فقد كان جمال المظهر وصفاء الصوت ونقاؤه وحلاوة اللحن وعذوبته من المزايا التي يمدح بها المغني والمغنية، وتذم المغنية لقبح شكلها وخشونة صوتها وثقل لسانها.

فهذا السري الرفاء ينظر الى مغنية فلم يعجبه جمالها ولا صوتها فيقول[56]:

لو شئت نهنهت من الدمع وصنته عن دارس الربع
هويتها شمطاء جاوزت من العد تسعين الى تسع
مسمعة لم تحظ من حبها بلذة العين ولا السمـــــع
تستنطق العود بمســودة يدعو عليها العود بالقطع

وجمال الشكل من صفات المغنية، ينظر السري الى مغنية سوداء فيقول[57]:

سوداء مغبرة السواد فقل في سدف شاب لونه سدف

ويرمي غانية من الغانيات اللاتي امتهن العمل في الملاهي بالغدر، فقد ذم الشعراء في الغواني سوء اخلاقهن وتحايلهن على الرجال والغانية مجبولة على الغدر ونصب الحبال للمتربصين يقول في احداهن[58]:

الا فاعجب لما صنع الغواني فقد افسدن بالغدر الصنيعا

اما الحجام (الحلاق)

فلم يسلم من سخريته وتهكمه الحجام قد عبث به من خلال مهنته باسلوب متهكم فقال[59]:

وحجام يقول الشعر جاءت غرائبه الي على البريـــــد
مزحت فلج في عتب تلظت على اثاره شعل القصيـــــد
فيا بعد السلامة من الكف تغربهن ضاريه الاســـــود
فلا تبعد سيوفك من سيوف فكم فتكت بجبار عنيـــــــد
صوام تضرب الاعناق جهلا وتحكم في سجياه وفي الخدود
تعلل من سطوت بها عليه بلفظ مثل تخويف البـــــرود
وكم تدرج المنديل فيـــه على ابيات شعرك والحديـــد
فتنشره الذي حبرت فيـــه وتحلق راسه بعد النشيـــــد

والمزين ايضاً اذا اراد ان يخرج معه يلسعه بسهام سخريته يقول[60]:

اما وابيك لا انساه تدمي مضارب سيفه البطل الكمبا
وبرق في انامله اذا مـــا تألق فتح الورد الجنيـــــا
اذا ظمئت فراخ ابيك يوماً سقاها من رقاب القوم ريـــا
وان جرح الاخادع مطمئناً كسا والجنات ديباجا مضيـــاً
ولم ار مثله يربى عقوقـــاً فيدعوه الورى برا حفيـــــا

وهناك شخص يدعى ادريس نالته سهام السري حين حصل له مهنة القيادة كما هو معروف لديه فقال فيه ساخراً متهكما[61]:

من ذم ادريس في قيادتـــــه فاني شاكر لادريـــــــــس
كلم ذا نخوة فكان لـــــــــه اطوع من آدم لابليـــــــس
وكان في سرعة المجيء به اصف في حمل عرش بلقيس

وتبدو تجاوزات الشاعر للقيم الاخلاقية في هذا التضمين في البيتين الاخيرين. ومهنة القاضي كانت اداته لهجاء القاضي حيث قال ساخرا[62]:

اذا شئت ان تجتاح حقاً بباطل وتغرق خصماً كان غير غريق
فسائل ابا بكر تجد منه سالكا الى ظلمات الظلم كل طريـــــق
ولاطف بالشهد المخلق وجهه وان كان بالالطاف غير خليـــق

وهكذا فان السري الرفاء يعد صاحب مذهب في هذا الاتجاه بالهجاء الذي يعتمد المهنة وسيلة للحط والسخرية من صاحبها، ويكاد يكون اغلب هجائه يعتمد هذا الاسلوب، وهو اذا لم يجد لمنافسه مهنة يحط من خلالها من قدره بين الناس فانه يختلف له مهنة مما يحتقرها الناس لينال منه من خلالها.

المصادر

1. المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري: 15.
2. ينظر في ذلك، الشعر في بغداد خلال القرن الثالث الهجري: 246، في الادب العباسي (الرؤية والفن) 384 تاريخ الادب العربي – العصر العباسي الثاني، شوقي/ صيف 428.
3. اتجاهات الهجاء في شعر القرن الثالث.
4. المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري: 115.
5. ديوان ابي نؤاس:284.
6. اليتيمة: 341/1 النامي: ابو العباس النامي شاعر مشهور من شعراء بلاط الحمدانيين.
7. ديوان السري الرفاء: 419/2.
8. تاريخ الادب العربي، شوقي ضيف، – العصر العباسي الثاني: 420.
9. علي بن العصب الملحي: شاعر من متأدبي بغداد كان شيخاً يتطايب ويتعصب للخالديين. انظر اليتيمة 150/2.
10. الخالديان: هما ابو بكر محمد وابو عثمان سعيد ابني هاشم الخالديان من اهل الموصل كانا يتعصبان على السري: اليتيمة 118/2.
11. الشمشاطي: من شعراء اليتيمة ومن اهل ارمينية وهو احد شعراء سيف الدولة. اليتيمة: 125/1.
12. التعلفري: لم نعثر على ترجمة لهذا الشاعر الذي ذكر في اليتيمه 300/1.
13. اليتيمة: 260.
14. الديوان: 419/2.
15. المصدر نفسه 419/2
16. المصدر نفسه 382/1.

17. ابن صدقه: ابو الحسن علي بن صدقة النحوي الموصلي، قيل ان اباه كان حائكاً، انظر ديوان السري 272/2.
18. الشعر في بغداد: 244.
19. الادب العربي في العصر العباسي: ناظم رشيد: 203.
20. شعر وشعراء الظرف والفكاهة في القرن الرابع الهجري، عناد الكبيسي، مجلة آداب المستنصرية عدد 12: 112.
21. الديوان: 558/2.
22. المصدر نفسه: 272/2.
23. المصدر نفسه: 272/2.
24. الديوان: 272/2.
25. الديوان: 268/2.
26. اليتيمة: 420/2.
27. الديوان: 376/2، وابن اليمبج هو ابو الجيش فارس بن اليمبجن قيل انه كان رقاصاً فاعتزل، يسكن بغداد، ينظر ديوان السري 268/2.
28. الشعر في بغداد في القرن الثالث الهجري: 248.
29. الديوان: 376/2.
30. الديوان: 377/2.
31. المصدر نفسه: 377/2.
32. الديوان: 743/2.
33. المصدر نفسه: 743/2.
34. المصدر نفسه:744/2.
35. المصدر نفسه:744/2.
36. السري الرفاء حياته وشعره: 291.

37. ينظر ديوان ابن الرومي: جـ 15/1، الفن ومذاهبه في الشعر العربي – شوقي ضيف: 214.
38. الديوان: 333/2.
39. الديوان: 333/2.
40. المصدر نفسه: 334/2.
41. المصدر نفسه: 334/2.
42. المصدر نفسه: 580/2.
43. المصدر نفسه: 572/2.
44. المصدر نفسه: 745/2.
45. السري الرفاء حياته وشعره: 265.
46. الديوان: 85/2.
47. الديوان: 432/1.
48. الديوان: 109/2.
49. الديوان: 219/2.
50. الديوان: 753/2.
51. المصدر نفسه: 153/2.
52. المصدر نفسه: 442/1.
53. الديوان: 503/2.
54. الديوان: 350/2.
55. المصدر نفسه: 97/1.
56. المصدر نفسه: 375/2.
57. الديوان: 376/2.
58. المصدر نفسه: 290/1.
59. الديوان: 80/2.

60. الديوان: 2/578.

61. الديوان: 2/328 .

62. الديوان: 2/502.

1. اتجاهات الهجاء في شعر القرن الثالث الهجري – قحطان رشيد – بيروت.
2. الادب العربي في العصر العباسي – ناظم رشيد – دار الكتب – الموصل 1989.
3. تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي – دار الكتاب العربي، بيروت.
4. تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي – عبد العزيز الكفراوي – دار نهضة مصر القاهرة، 1967م.
5. ديوان ابن الرمي: طبعة كامل الكيلاني 1924.
6. ديوان ابي نواس: محمود كامل فريد 1898
7. ديوان السري الرفاء: حسين الحسني – دار الرشيد – بغداد 1981، مكتبة القدسي، القاهرة – 1935.
8. السري الرفاء – حياته وشعره – حسين الحسني – دار الرشيد – بغداد 1981.
9. الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث – الجواري – وزارة المعارف بغداد.
10. شعر ابن لنلك البصري – جمع وتحقيق – زهير غازي زاهد، مجلة الخليج العربي، العدد الاول السنة الاولى– مطبعة حداد – البصرة 1973.
11. شعر وشعراء الظرف والفكاهة الى نهاية القرن الرابع الهجري، عناد الكبيسي، مجلة اداب المستنصرية، عدد 12 سنة 1985.
12. الشعراء الكتاب في القرن الثالث الهجري، حسين صبيح العلاق دار التربية بغداد– 1975.
13. عصر الدول والامارات – شوقي ضيف – دار المعارف ط 2 – القاهرة 1983.
14. العصر العباسي الثاني – شوقي ضيف – دار المعارف – مصر 1986.
15. الفن ومذاهبه في الشعر العربي – شوقي ضيف ط2 – دار المعارف مصر 1945م.

16. في الادب العباسي (الرؤية والفن) عز الدين اسماعيل – دار النهضة العربية – بيروت 1975م.
17. المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري – عبد اللطيف الراوي مكتبة النهضة بغداد.
18. معجم الادباء – ياقوت الحمودي – بلا تاريخ.
19. وفيات الاعيان – ابن حلكان – : تحـــ محمد محي الدين عبد الحميد ط 1 – القاهرة – مكتبة النهضة 1367هـــ.
20. يتيمة الدهر – الثعالبي – تحـــ: محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة القاهرة 1950.